الحركة العياشية في المغرب ودورها في الجهاد ضد الغزو البرتغالي

الأستاذ المساعد الدكتورة
إلهام محمود الجادر
كلية التربية للبنات - جامعة الكوفة

المقدمة

بدأ ظهور نفوذ السعديين في بلاد درعه والسوس الأقصى ، في وقت كانت الشواطئ المغربية عرضة لأطماع البرتغاليين والأسبان وأخذوا يستولون على الثغور المغربية الواحد تلو الأخر. ففي عام ١٤١٥ تم احتلال سبته ثم طنجة في عام ١٤٦١ وأصيلا ١٤٧١ والعرائش ١٤٨٩ وأسفي ١٥٠٨ والجديدة ١٥٠٢وأغادير ١٥٠٥ وأزمور ١٥١٣ والمعمورة ١٥١٥ . . وبدأت مرحلة من الصراع بين المغاربة وهذه القوى الغازية (١) .

وظهرت أثناء ذلك شخصية (أبي عبد الله) الذي أخذ على عاتقه مقاومة الغزو البرتغالي بمساندة أهالي مدينة السوس ، ولكن أدركته المنية وهو في أفغال وذلك في سنة ١٥١٧ ، فتولى ألأمر بعده ابنه أبو العباس أحمد المعروف بالأعرج الذي حقق انتصارات كبيرة على الوجود البرتغالي في تلمست وأسفي والعرائش و طنجة وغيرها من المدن التي استقروا فيها وسانده في هذا الجهاد أخوه أبو عبد الله محمد الشيخ (المعروف بشخصيته القوية فكان متمرسا في الحرب ،راسخا في العلم يحفظ القرآن ويفهمه) ، ونجح أبو عبد الله في طرد البرتغاليين من حصن فونتي واضطروا لإخلاء أسفى وأزمور وأصيلا من غير قتال وذلك في سنة ١٥٤٢ (٢) .

وواصل أبناء ألأسرة السعدية حركات المقاومة ضد الغزاة ، ونجح الشرفاء السعديون في استرجاع معظم المراكز المحتلة ، فعندما خلصت البلاد لمولاي عبد الملك اتجه إلى تجديد القوة البحرية المغربية لحماية الثغور فأنشئت السفن في العرائش وسلا وأسس قوة عسكرية نظامية مبنية على الأسلوب العثماني سواء في التنظيم الحربي أو اللباس العسكري لملاحقة البرتغاليين (٣) .

وفي سنة ١٥٧٨ حاول الملك البرتغالي (دون سبستيان) القيام بحملة صليبية على شواطئ المغرب بمشاركة سبعة آلاف جندي من ألأسبان والإيطاليين ومن الفاتيكان والألمان يضاف إليهم قوة كبير ة من أنصار المتوكل على الله) وهو ابن الحاكم عبد الله الغالب وحاول في كتب أرسلها إلى علماء المغرب يبرر فيها سبب موقفه وتقاربه مع البرتغال وأنه قام بذلك لاسترداد عرشه إلا أن العلماء استنكروا عليه ذلك) (٤) .

أما الجيش المغربي المؤلف من سبعين ألف مقاتلا فكان بقيادة أحمد المنصور وهو ألأخ ألأصغر لمولاي عبد الملك تسانده قوات عثمانية قدرتها بعض المصادر بخمسة ألاف شخص ، وتمركز ألأسطول العثماني المغربي وقوامه ثمان وثمانون سفينة على طول السواحل المغربية . وفي ٤ أب ١٥٧٨ وقعت الواقعة الحاسمة بين الجيشين عند الضفة اليسرى لوادي المخازن ، انتهت بإعلان ألانتصار ألإسلامي والقضاء على ملك البرتغال واندحار جيشه وأصبحت البرتغال تحت السيطرة الأسبانية استمرت حتى عام ١٦٤٠(٥) . . هذا في الوقت الذي شهد المغرب تطورات سياسية وظهور أحمد المنصور الذي أصبح من أشهر سلاطين المغرب إثر مواصلته ونجاحه في استرجاع معظم المراكز المحتلة ، كما

ازدهرت الحركة الدينية والفكرية والأدبية والثقافية ، والذي شجع على هذا ألانتصار إن المنصور قرب إليه رجال الدين من علماء وفقهاء لاكتساب المتدينين واتقاء المرابطين وكان يحتفل كثيرا بالأعياد الدينية وخاصة المولد النبوي ، حيث كان يصل الاحتفال إلى درجة لا مثيل له في تاريخ المغرب وأقام صلة مع شريف مكة وكاتب علماء مصر وشيوخها وبذل المال لرجال الدين لإشاعة ذكره (٦) .

وكانت السنوات الأخيرة لحكم المنصور صعبة بسبب مرض الطاعون الذي ألم بالبلاد مدة سبع سنوات أهلك بسببه الناس في المدن والأرياف ، رافقه قحط جفف الأنهار والينابيع وسبب مجاعة ثم جاء النزاع الداخلي والمتمثلة بثورة ولي عهده المأمون مما ترك جرحا بليغا في نفس المنصور أودت بحياته سنة ١٦٠٣ ، فضلا عن ذلك المنافسة ألأجنبية لتجارة المغرب كل ذلك شجع الطامعين فيها على إعادة احتلال ثغور المغرب الهامة (٧) .

دور الطرق الصوفية في تاريخ المغرب السياسي :

إن الوحدات السياسية بما فيها حركة الجهاد الإسلامي فشلت في تخليص الموانئ المغربية من الغزو البرتغالي والأسباني ، ولهذا بدأت القوى الوطنية المغربية في التجمع حول رجال التصوف الذين قادوا الحركة العلمية والروحية في البلاد ووجدوا أنفسهم على رأس قيادة حركة الجهاد ، فشيدوا مراكز المقاومة على طول السواحل المغربية الشمالية الشرقية والغربية .

وكان المغرب آنذاك يضم خلال هذه المرحلة عددا كبيرا من الطرق الصوفية ورجال الدين والمرابطين ، حيث ظهرت من بينها زعامات دينية لعبت دورا سياسيا وقامت منظمات عسكرية مثل حكومة العياشي في سلا و الدلائيون في تادلا ومرابطي الجنوب في سلجماسة والسملالي في أبليغ . وكثير ما كان يحدث اندماج بين هذه الطرق الدينية والتنظيمات العسكرية فعلى سبيل المثال كان العياشي تربطه علاقة وطيدة مع محمد أبي بكر الدلائي ويعلمه بخططه الحربية ويرسل له بعض غنائمه (٨) . وهناك أسباب أدت إلى ظهور دور رجال التصوف الذين قدموا خدمات جليلة في المغرب منها(٩) :

١- النزاع الداخلي بين أبناء المنصور بعد وفاته سنة ١٦٠٣ .

٢- تقلص نفوذ السعديين في المناطق المحيطة بمراكش .

٣- افتقار السعديين إلى المال اللازم للقيام بأي عملية عسكرية خاصة إذا علمنا إن المنصور صرف أكثر ما لديه لبناء عظمته .

٤- انهيار نظام التبادل التجاري بسبب تغيير اتجاه القوافل فبدلا من أن تمر القوافل من تمبكتو حميمة البيضاء -مراكش وموانئها في أسفى وأغادير والعرائش أصبحت تتجه إلى مصر وتونس والجزائر .

٥- أنهك النزاع الداخلي قواها العسكرية وفقدانها لعدد كبير من الرجال

٦- ارتفاع الأسعار للمواد الأساسية للعيش مما أدى إلى ظهور مجاعة يضاف إليه ما تعرضت إليه البلاد من مرض الطاعون الذي اجتاح البلاد في الفترة ما بين ١٥٩٨ و١٦٠٨ .

٧- تعسف السلطة السعدية وانهيار الثقة لدى الرعية مما أفقدهم احترام الشعب لهم .

٨- فقدان الدولة السعدية إلى سلاطين ذوي صفات تجعل منهم رجالا يحافظون على التقاليد الإسلامية والعربية .

٩- ظهور أسر نالت احترام الشعب مثل – آل النقسيس وال غيلان وال أبي الليف وكان لها دور بارز في مقاومة القوى الأجنبية في ظل غياب السلطة السعدية .

الحركة العياشية ودورها في الجهاد :

في وسط هذا الاضطراب والنزاعات الداخلية ظهر دور الحركة العياشية ، فمن هو زعيمها ؟ وكيف نشأت و تطورت ؟

يعد أبو عبد الله محمد بن أبي العباس أحمد المالكي الزياني زعيم الحركة ولقب بالعياشي نسبة لموقعة عياشة كما تشير لذلك أغلب المصادر . وتتلمذ العياشي على يد أستاذه وشيخه (أبي محمد عبد الله بن حسون ألسلالي) وهو رجل تصوف بل قطب من أقطاب التصوف في المغرب (١٠) .

ويبدأ العياشي جهاده مع العقد الأول من القرن السابع عشر الميلادي عندما أمره أستاذه حسون السلاسي بالتوجه إلى دكالة والجهاد في سبيل الله وفي سنة ١٦٠٤ استقر العياشي عند أولاد

أبي عزيز وكان وجوده فيها أثر كبير في الحرب ضد البرتغاليين، كما ترأس العمليات العسكرية في أزمور ضد الغزاة البرتغاليين وأخذ يضيق عليهم وانتصر على جيوشهم وذاع صيته سواء بالنسبة للمغاربة أو البرتغاليين ووصلت أخبار انتصاراته إلى بلاط السعديين بمراكش فعينه السلطان زيدان عاملا على أزمور وولاه قيادة أحد ثغورها سنة ١٦١١(١١) .

ولكي يظهر للسلطان زيدان تبعيته كان يبعث بخمس الغنائم والأسرى من البرتغاليين له فزادت شهرته وذكر أسمه في المساجد لأثره الواضح في حربه ضد البرتغاليين(١٢) .

مراحل الحركة وتطورها :

مرت الحركة العياشية بأربع مراحل هي :

المرحلة ألأولى تمتد من ١٦٠٤ـ ١٦١٥ (مرحلة الظهور).

المرحلة الثانية تمتد من ١٦١٥ـ ١٦٢١ (مرحلة السلم)

المرحلة الثالثة تمتد من ١٦٢٢ـ ١٦٣٢ (مرحلة الجهاد)

المرحلة الرابعة تمتد من ١٦٣٢ـ ١٦٤١ (مرحلة الانفتاح)

وتشير أغلب المصادر أن العياشي استقر في منطقة سلا ومنها بدأ بتنظيم عملية لاسترجاع المعمورة التي سقطت في أيدي ألأسبان منذ عام ١٦١٥ ، واستطاع العياشي في عام ١٦٢١ تنظيم مجموعة جهادية من المعمورة والعرائش لمجابهة المشكلات التي اعترضت طريقه منها النزاع الذي قام بينه وبين أبناء النقسيس في تطوران من جهة ومع سكان الرباط من جهة أخرى ، وقد ساندة في هذا النزاع حاكم سلا وأهلها وقاموا بحمايته لأنهم وجدوا فيه خير عون للتخلص من الوجود ألأجنبي في مدينتي المعمورة والعرائش حيث نجح في طرد أكثر من ٥٠٠ أجنبي من العرائش وحدها بعد معركة تعد من أهم المعارك الجهادية للعياشي وذلك في عام ١٦٣١ (١٣) . أن هذه ألانتصارات والتفاف الناس حول العياشي ـأزعج السلطان زيدان بمراكش فبعث إلى قائد منطقة سلا ويدعى (الزعروري) يأمره بالقبض على العياشي لكنه فشل بسبب عزل والي سلا له بعد معرفته بالأمر . . وبايع الناس العياشي وتعهدوا بطاعته ، مما أثار شكوك البلاط السعدي بمراكش فأوصى بعض الفقهاء لينشروا بين الناس أن جهادهم مع العياشي باطل ، لأن الجهاد لا يكون إلا مع الإمام وبأذن منه ـ إلا أن بعض العلماء أيدوا العياشي في جهاده مؤكدين أن القتال ضد الغزاة لا يتوقف على وجود الإمام (١٤) .

وحين تولى الوليد بن زيدان الحكم ،و الذي كانت تربطه علاقات وطيدة بالعياشي وذلك عندما أحسن ألأخير استقبال الوليد أثناء النزاع الذي كان قائما بينه وأخوه أحمد ضد أخيهما الثالث عبد الملك عقب وفاة زيدان ، وهذا ما جعل للعياشي بعض الأفضال على الوليد . وما أن وصل الوليد إلى السلطة حتى أرسل إلى العياشي يخبره بالوصول إلى السلطة محاولا استمالته إلى جانبه فأرسل له يستوضحه أحوال المسلمين وأحوال العدو في الثغور والمناطق التي يتصل بها وله فيها أعوان ، وقد رد عليه العياشي موضحا المواقف ، شارحا له طريقة منهجه في اختيار ألأتباع ومعاملاته مع الناس وأوضح له كيف احتل الغزاة الثغور واعتبر الجهاد واجب على كل المسلمين (١٥) . وبالمقابل لم يحاول الوليد تدبير اللازم للعياشي أوحتى يبحث معه قضية إمكانيات الجهاد وخاصة توفير السلاح والعتاد للمجاهدين ، ورغم ذلك فإن العياشي استمر في جهاده ضد ألأسبان والبرتغال كما استمر في حث المواطنين على الجهاد ونبذ الخلافات الجانبية ، خاصة بعد أن قام أهل فاس بخلع بيعة الملوك السعديين وكتبوا إلى العياشي يخبرونه بالذي حدث وأنهم بايعوه على الجهاد والتي مثلها العياشي الذي أخذ ينظم الصفوف ويوحد البلاد لمحاربة الغزاة (١٦) .

ولاشك أن ما مكنه من الاستمرار في الجهاد حتى نهاية حياته هو ما تميز به من قدرة على إلهاب حماس المواطنين وإثارة حميتهم ضد الغزاة ونظم صفوفهم في حرب مقدسة حتى أصبحت المنطقة الممتدة من الجديدة إلى طنجة مسرحا لعملياته . .وفي السادس من يونيو ١٦٣٩ تحركت قوات العياشي إلى البريجة لملاقاة قائد البريجة البرتغالي ، ويظهر العياشي وكأنه يحاول التراجع ، فيخدع القائد البرتغالي ثم يغير العياشي بكل قواته على قوات البرتغال ، ولم يسلم من القتل إلا سبعة وعشرون فردا ثم اتجه نحو المعمورة وحلق وادي سبوا ومنطقة عياشة قرب جبل الحبيب (الحرائش) وفي غيرها من المناطق التي تمركز فيها الغزاة في الثغور المغربية وكانت خسائر الجيش البرتغالي فادحة في الأرواح والسلاح (١٧) . واتبع العياشي في حربه هذه نظام العصابات فهو ينتقل في حركاته الجهادية هذه بين المناطق

المختلفة يتربص بالعدو ويأخذه على غرة أو يرسل الجواسيس ممن هم موضع ثقة المستعمرين فيقربوهم . وتعد هذه الغزوات أخر غزوات العياشي ضد الغزاة لأن حركة العياشي دخلت بعد ذلك مرحلة جديدة أدت إلى نهايتها(١٨) .

سياسة ألانفتاح ونهاية حركته :

أصبح نفوذ العياشي في المناطق التي حررها من الغزاة قويا ومعترفا به من القبائل العربية ـ بل كان أقوى من نفوذ سلطان مراكش نفسه وأصبحت الدول ألأجنبية وخاصة إنجلترا تحاول أن تحصل على وده لتأمين مصالحها الاقتصادية والسياسية وسلامة رعاياها في هذه المناطق .

وبسبب حاجة العياشي للسلاح حاول إتباع سياسة الانفتاح مع الدول الأوربية لتأمين المنافذ على البحر ولكي يحصل على السلاح سعى لتسهيل المعاملات الأوربية في منطقة نفوذه مستغلا رغبة هذه الدول لتحسين التعامل مع العياشي ، من جهة أخرى كان سلطان مراكش يبث الدعاية ضد العياشي موضحا أطماعه في الحكم وسعيه للقضاء على الحكم السعدي (١٩) . وفيما يتعلق بالعلاقة بين العياشي والحركة الدلائية (التي ظهرت كحركة دينية للعبادة والتفقه وانتشرت زواياها في المغرب في القرن السادس عشر ومؤسسها أبو بكر محمد سنة ١٥٦٦ وتعتبر تادلا مركزا لنشاطهم) فلم تستمر العلاقة الطيبة التي كانت بينه وبين صديقه محمد الدلائي على أثر وفاة ألأخير وتولي ابنه محمد الحاج ألأمر سنة ١٦٣٦ (وهو شخصية قوية طموحة استفادت من الفوضى المنتشرة في المغرب لمد نفوذه وكانت تتبعه قبائل بربرية قوية مثل آيت وبني مطير وكروان وآيت اسحق في الأطلس الأوسط) وكانت الخلافات قد بدأت بين الطرفين بسبب اختلافهما حول نظريتهما للأحداث ، فالعياشي يرغب بتوحيد البلاد والقضاء على نفوذ السعديين ، في حين يرى محمد الحاج بعدم لزوم القضاء على السعديين . . ويبدو إن السبب في ذلك هو أطماع الطرفين على زعامة البلاد مستغلين ضعف حكام ألأسرة السعدية النى لم يعد لها دور سوى التمسك بعرش ينهار(٢٠) .

ومع بداية عام ١٦٤٠إتجه محمد الحاج الدلائي بأعداد كبيرة من أنصاره من عرب وبربر إلى مكناس ثم إلى فاس وحاصرها إلا أن العياشي تصدى له بكل قوته انتهت بانتصار العياشي(٢١) . . واستطاع الدلائيون أن يوقعوا الفرقة بين أنصار العياشي من قبائل الكوارده والتاغى والدخسيس والخلط وانتهزوا فرصة انشغال العياشي بقتال ألأسبان في طنجة فجمعوا جيشا كبيرا شمال نهر سبو لتعرض طريقه أثناء عودته من القتال ، ودارت معركة في ضواحي سوق أربعاء الغرب في مارس ١٦٤١ ، وحاول العياشي استجماع قوات من سلا واتجه شمالا حيث قابل محمد الحاج في المعركة الفاصلة التي انهزم فيها أتباع العياشي ولذا قرر أللجوء إلى قبيلة الخلط ولم يعلم أنهم انحازوا إلى أعدائه فاغتالوه في عين القصب التي تقع على بعد ٢٠ كيلومترا غرب سوق أربعاء الغرب وذلك في يوم الخميس الموافق ٢١ مارس ١٦٤١ ودفن الرأس قرب مولاي بوسلهام وباقي الجثة عند ضريح مولاي بوشتا الخمار .وبموت العياشي تفرق أنصاره وخلا الجو للدلائين فاستولوا على فارس وسلا وتطوان وأصبح لهم نفوذ في معظم بلاد المغرب(٢٢) .

الخلاصة

لا يمكن فهم تاريخ المغرب الحديث دون التعرض للمقاومة الإسلامية ودون الحديث عن دور زعماء الحركات الصوفية ومنها الحركة العياشية في مقاومة الموجة الاستعمارية التي هبت على المغرب في شكل حملات مكثفة هدفها الأساسي ضرب الإسلام والقضاء على الدين الإسلامي .

ولعب العلماء ورجال التصوف دورا كبيرا في حركة الجهاد وساهمت زواياهم والربط التي أقاموها في القيام بأعباء الجهاد في ظل السلطة السياسية وحثوا الناس على ألالتحاق بالربط وبينوا لهم ألآجر الذي يناله الرابط في سبيل الله مما ساهم في انتشار الربط على طول السواحل وصارت مراكز ينطلق منها المجاهدون لمهاجمة الغزاة ولم تعد دور الزوايا مقتصرا على التعليم والأذكار أو حل المشكلات الاجتماعية أو مأوى للفقراء والمحتاجين .

وكان للحركة العياشية دور ثقافي وسياسي وعسكري كبير إذ تصدت بعنف للموجة الاستعمارية التي اجتاحت العالم

ألإسلامي والعربي وساندت حكام الدولة السعدية على التصدي لهم ووقفوا لهم بالمرصاد وهي بذلك جمعت بين السلطة الدينية والسلطة السياسية ، رغم أن الهدف الأساسي كان مقتصرا على النواحي الدينية . كما كان لها دور واضح في المجال الاقتصادي وذلك بعد أن نجحت في تأسيس الزوايا التي عدت مراكز للعمل والإنتاج وخلق مجتمع مستقر . . وحاول الحكام التعاون معه من أجل سلامة الصادرات والواردات عبر المنافذ التجارية مما أدى إلى انتعاش التجارة وازدهار الحياة الاقتصادية .

((هوامش البحث))

١ – أحمد بن خالد الناصري ، الأستقصا لأخبار المغرب الأقصى ، ج٦ ، الدار

البيضاء ، ١٩٥٤ ، ص ١٨ – ٢٥ . ٢–

Boutoteb ، brohimet autnes : histoire du maroc ، Paris ، ١٩٦٧ ، P ٢٢٠ – ٢٢٥

٣ – مؤلف مجهول ، تاريخ الدولة السعدية ، ص ٩٥ – ٩٨ .

٤ – الناصري ، مصدر سابق ، ص ٢٨ .

٥ – للتفاصيل ينظر المصدر : عبد الله عبد الرزاق إبراهيم ، المسلمون

والاستعمار الأوربي لأفريقيا ، الكويت ، ١٩٨٩ .

٦ – مؤلف مجهول ، مصدر سابق ، ص ١٠٠ .

٧ – إبراهيم ، مصدر سابق ، ص ٧٥ – ٧٧ .

٨ – أحمد توفيق عياد ، التصوف الإسلامي ، تاريخه ومدارسه وطبيعته ، وأثره ،

القاهرة ، ١٩٧٠ ، ص ٢٠ – ٤٥ ، أحمد أمين ، ظهور الإسلام ، مجلد ٤ ،

بيروت ١٩٦٩ ، ص ٥٨ .

9 – E ، montet ، the religious orders of morocco ، Asiatic quartly

1902 ، PP 67 – 70 . review ،

وانظر المصدر : أحمد أمين ، مصدر سابق ، ص ٥٩ – ٦٥

، إبراهيم ،

الصوفية والمجتمع في غرب أفريقيا ، القاهرة ، ١٩٩٩ ،

ص ص ٢٠ ، ٣٠ ، ٤٤ .

١٠ – إبراهيم ، الطرق . . مصدر سابق ، ص ٢١١ ، ٢١٢ .

١١ – الناصري ، مصدر سابق ، ص ٣٥ – ٤٠ .

١٢ – المصدر نفسه ، ص ٤٥ .

١٣ – إبراهيم ، المسلمون . . مصدر سابق ، ص ١١٥ – ١٤٥ .

١٤ – إبراهيم ، انتشار الإسلام في غرب أفريقيا ، مجلة الجهاد ، العدد ١٠٩ ،

القاهرة ، ١٩٩١ ، ص ٣٠ – ٣٥ .

١٥ – إبراهيم ، مشكلة المسلمين في أفريقيا ، القاهرة ، ١٩٧٧ ، ص ١٤٠ – ١٦٥

١٦ – المصدر نفسه ، ص ١٥٨ .

١٧ – إبراهيم ، الطرق . . مصدر سابق ، ص ٢١٣ – ٢١٦ .

١٨ – المصدر نفسه ، ص ٢١٣.

١٩ – الناصري ، مصدر سابق ، ص ٢٥ – ٣٠ .

٢٠ – محمد حجي ، الزاوية الدلائية ودورها الديني والعلمي والسياسي ، الرباط ،

١٩٦٣ ، ص ص ١٥ –١٦

وانظر المصدر : عبد الفتاح الغنيمي ، موسوعة تاريخ المغرب العربي ،

القاهرة ، ١٩٩٩ .

٢١ – محمد حجي ، مصدر سابق ، ص ٥٨ .

٢٢ – إبراهيم ، الطرق . . مصدر سابق ، ص ٢١٧ .